

- ٢ -

وصف جون بولونير للأرض المقدسة
(١٤٢١م)

oboeikandi.com

تمهيد:

قال الدكتور توبلر Tobler لحسن الحظ أننا نعرف اسم صاحب هذا العمل، ثم تابع يجاجج بأن بولونير كان ألمانيا، وفي المقابل رأى الكونت ب. رينات Riant بأنه كان بولندياً، والبراهين التي أقام الدكتور توبلر نظريته عليها هي أن المؤلف استخدم كلمة كلافتيرن Klaftern ، لدى قياسه بالميل الألماني، مع إيضاحه لقراءه كم من الأميال الإيطالية تساوي ميلاً ألمانياً واحداً، يضاف إلى هذا قوله بأن فلسطين كانت مقاطعة في الأرض المقدسة، مثلما سكسوني واللورين 'مقاطعتان ألمانيتان، أو مثلها توسكانيا ولومبارديا مقاطعتان من إيطاليا.

وأمكننا معرفة تاريخ رحلته، لأنه هو نفسه أخبرنا عن ليلة مرعبة أمضاها في ميناء بيروت وفي عشية عيد القديس توما سنة ١٤٢٢م، وحدثنا أيضاً كيف كان المسلمون يحصدون على جبل الزيتون، في يوم عيد القديس جرجس (٢٣ - نيسان) ١٤٢١م، وبناء عليه من المحتمل أنه ذهب في طريق عودته إلى بيروت، ويتوافق شرحه من حيث الجوهر — لاغالباً — بالكلمات نفسها مع كلمات بوركارد راهب جبل صهيون، مع أنها تختلف عنها بالترتيب، ولقد لاحظت وجود توافق مستمر بين الأماكن التي أريت لبولنير، وتلك التي أريت لفابري وغالباً ما جرى وصف هذه الأماكن بالكلمات نفسها، وهنا لانعرف فيما إذا كان فابري قد نقل عن مقدمه، أو فيما إذا كانا قد كتبا القصة نفسها التي أخبرهم بها الحرس، والقندلفتية.

وترسو أهمية بولونير ومكانته في أنه أول حاج — بقدر ما نعرف — رسم خريطة للأرض المقدسة، مع أن خريطته لسوء الحظ قد تلفت، ومع ذلك تمكن الدكتور توبلر من إعادة رسمها بشكل موفق، واعتماداً

على الاشارات التي وردت في النص إليها، وعلى الخريطة التي نشرها مارينوسانوتو، وليس من السهل في البداية، أبداً، فهم ترتيبات الخريطة، فهي مقسمة بوساطة خطوط، تشبه خطوط العرض والطول، الموجودة على الخرائط الحديثة، لكن يلاحظ أن الخطوط التي تشبه خطوط العرض فوق مساحة الخريطة عددها ثلاثة وثمانين خطاً، عبرها بالطول ثمانية وعشرون خطاً، وأخبرنا الدكتور توبلر بأن ترتيب المربعات هذه، قد استخدم من قبل موريس الباريسي، الذي فقدت خريطته أيضاً، وقاس بولونير بالمسافات بين الخطوط، وليس بالخطوط نفسها، وأطلق على هذه المسافات اسم المربعات بالنسبة للعرض، والفراغات بالنسبة للطول، وهذا يعني أن القارىء لدى عشوره على مكان «تحت» كذا وكذا «مربع»، من المتوقع هنا منه أن يتولى تعداد المربعات على طول الحافة الأطول للخريطة حتى يصل إلى المربع المذكور، ثم ينظرته تحت أسفل العمود من هناك، سوف يجد المكان، وإذا كان المذكور موجود في كذا وكذا «مربع»، يتوجب عليه تعداد المربعات على طول نهاية الخريطة، وينظر على طول الخط، وليس من السهل شرح هذا النظام من دون رسم بياني، لكن ربما سيكون هذا تكلفاً مرهقاً، نرى فيه مؤلفنا فهيماً تماماً وبارعاً باستخدام الخريطة الحديثة، وأخبرنا الدكتور توبلر بأن موريس الباريسي قد عمل خريطة وفق هذه الطريقة، لكنها فقدت.

ومن الصعب أن نعتقد أننا نمتلك هنا رحلة بولونير كلها، ومن الصعب جداً أن نقبل بإمكانية أن حاجاً حريصاً مثله، وكاتباً تقياً على غراره، وصف حجه إلى الأرض المقدسة، ومع ذلك لم يقدم وصفاً لكنيسة الضريح المقدس، التي كانت الهدف الرئيسي لرحلته، فضلاً عن ذلك لدى قراءتنا لمطلع كتابه نشعر أننا نتعامل مع قطعة، هذا وليس من الواضح من أي مكان من نصه الحالي جرى فقدان وصف الضريح المقدس، ما لم نفترض أنه كان في النص فصل مستقل أوقف على هذا

الموضوع، ثم إنه لم يعطنا أية حقائق جديدة مرتبطة بالجغرافية القديمة، ولا بد من أن نقنع أنفسنا باستخراج بعض الاشارات التي فيها بعض معلومات مفيدة حول أوضاع كنائس وبيع في الأرض المقدسة والقدس، وقييل النهاية كرر نفسه، وأعطانا القائمة المعروفة بالأسماء التي نجدها لدى جميع كتاب رحلات الحج الذين استخدموا «الخلاصة الوافية»، وراجع في هذا المقام رحلتي ثيودورك وفيتلوس، اللتان تقدمتا من قبل، وهنا يتضح أنه على الرغم من أن بولونير قد زار الأرض المقدسة في وقت متأخر كثيراً بعد هذين الكاتبين، نجده يقلد عرضهما تقليداً قريباً، وقد نقل المزيج نفسه من سوء الفهم الجغرافي، من المصادر نفسها، أو مصادر مماثلة.